تفسير سورةُ الفرقان
من آية (44) إلى آية (50)
اللقاء السابع

المعنى الإجمالي من آية (35) إلى آية (43):

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، فكانت عاقبتُهم الإهلاكَ والتدميرَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، وجعَلْنا معه أخاه هارونَ مُعينًا له في أمرِ الرِّسالةِ، فقُلْنا لهما: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكذَّبوهما فأهلَكْناهم بالغَرقِ، وأغرَقْنا كذلك قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْناهم عِظةً وعِبرةً للنَّاسِ، وأعدَدْنا للظَّالمين عذابًا موجِعًا مُؤلِمًا، وأهلَكْنا كذلك عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم، وأُمَمًا غيرَهم كثيرينَ لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ، وكلًّا مِن هؤلاء المهلَكينَ وضَّحْنا له الأدلَّةَ على وحدانيَّتِنا، وكلًّا منهم أهلَكْنا إهلاكًا كاملًا.

ولقد مرَّ كفَّارُ قُريشٍ على قريةِ قَومِ لوطٍ الذين أمطر اللهُ عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ، أفلمْ يَكونوا يرَونَ في أسفارِهم آثارَ إهلاكِنا هذه القريةَ، فيعتَبِروا ويتَّعظوا بما حلَّ بهم بسَبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم؟! بل كانوا يَرونَ عاقِبةَ أهلِ تلك القريةِ التي أهلَكْناها، ولكِنَّهم كانوا لا يُؤمِّلونَ وُقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا، ولا يخافونَ عذابًا. يخبِرُ الله تعالى عن استِهزاءِ المشركينَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما كانوا يقولونَه عندَ رؤيتِهم له، فيقولُ تعالى: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قرَيشٍ، يَسخَرون منك، ويَستَهزِئون بك، قائِلينَ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه إلينا رَسولًا؟! لقد أوشَكَ أن يَصرِفَنا عن عبادةِ أصنامِنا لولا أن تمسَّكْنا بها وردَدْنا دعوتَه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مهدِّدًا لهم: وسوف يعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ حينَ يرَونَ العذابَ مَن أبعَدُ طريقًا عن الحَقِّ، أهُم أمْ أنت؟!

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه، ومبَيِّنًا حقيقةَ حالِ هؤلاء المشركينَ: أرأيتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّبَع هواهُ وانقاد له، أفأنت تكونُ عليه حَفيظًا؛ تمنَعُه مِنَ الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! بل أتظُنُّ أنَّ أكثَرَ هؤلاء المشرِكين يَسمَعون ما تُرشِدُهم إليه سماعَ تدَبُّرٍ وتعَقُّلٍ، أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! كلَّا، إنَّهم ليسوا كذلك؛ فما هؤلاء المشرِكون في عدَمِ انتفاعِهم بما يقرَعُ قلوبَهم وأسماعَهم إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا

ومن الأسباب المفضية لاتباع الهوى الجهل بالعلم الشرعي، فمن الناس من يتصدر ويكتب أو يتحدث أو يفتي في أمور الشريعة وهو غير مؤهل لذلك، فيتكلم في شريعة الله بما يمليه عليه هواه فيكون وبالاً على الأمة لأنه يقودها إلى الضلال وتحسب نفسها على الهدى، وقد حذَّر الله من هذا الصنف من الناس بقوله:(وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) [الأنعام:119].

وايضاً من أعظم أسباب اتباع الهوى الغفلة عن ذكر الله وتعظيمه في القلب ومخالطة الغافلين وقد حذر الله من ذلك بقوله: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف:28].

وإن العاصم من ذلك كثرة ذكر الله ومخالطة العلماء والتزود من العلم الشرعي–وما أسهل هذا اليوم مع تطور وسائل الاتصال–واتباع ما أنزل الله من البينات والهدى، والتمسك بتطبيق شريعة الله في كل كبيرة وصغيرة من حياتنا، فكل ما بدا أمر نسأل عن حكم الله فيه وسنة نبيه –ﷺ–فإن كان موافقاً لها اتبعناه ولو خالف هوانا ومراد نفوسنا أو مراد أهلينا وأبنائنا، فهذا ربنا سبحانه وتعالى يخاطب خير البرية موضحاً له ولأمته الطريق بقوله: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) (الجاثية:18-19).

قال الشنقيطي: والواجِبُ الذي يلزَمُ العمَلُ به: هو أن تكونَ جَميعُ أفعالِ المكَلَّفِ مُطابِقةً لِما أمَرَه به معبودُه جَلَّ وعلا، فإذا كانت جميعُ أفعالِه تابعةً لِما يَهواه، فقد صرفَ جميعَ ما يستحِقُّه عليه خالِقُه من العبادةِ والطاعةِ إلى هواه.

عبادةُ اللهِ تعالى إنَّما هي بطاعتِه وطاعةِ رُسُلِه، فإذا أمرَ اللهُ على ألْسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحبُّه هو؛ كان عابدًا لهواه، لا عابِدًا للهِ؛ قال تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ مَن قَدَّمَ هوى نفْسِه على هُدى ربِّه، فهو قد اتَّخذَه إلهًا. الدرر السنية

قال ابن تيمية: الإنسانُ إذا اعتبَرَ وتعَرَّف نفْسَه والنَّاسَ، رأى الواحِدَ يريدُ نفْسَه أن تُطاعَ وتَعلوَ بحسَبِ الإمكانِ، والنفوسُ مَشحونةٌ بحُبِّ العلُوِّ والرئاسةِ بحسَبِ إمكانِها، فتَجِدُه يوالي مَن يوافِقُه على هواه، ويُعادي مَن يخالِفُه في هواه، وإنَّما معبودُه ما يَهواه ويُريدُه؛ كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [الجاثية: 23].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿44﴾

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) أي: بل أتظُنُّ -يا مُحَمَّدُ- أنَّ أكثرَ هؤلاء المشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم).

قال -عز وجل-: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [النمل: 80]).

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) أي: ما المشرِكون إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم. موسوعة التفسير

ومن لم يتعظ ويعتبر شُبه بالبعير؛ فقد أخرج أبوداود عن عامر مرفوعا: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ، ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ، عَقَلَهُ أَهْلُهُ، ثُمَّ أَرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَرْسَلُوهُ".

قال ابن القيم: جعَلَ الأكثرينَ أضَلَّ سبيلًا مِنَ الأنعامِ؛ لأنَّ البهيمةَ يَهديها سائقُها فتَهْتدي وتَتَّبِعُ الطَّريقَ، فلا تَحيدُ عنها يمينًا ولا شِمالًا، والأكثرونَ يَدْعوهم الرسُلُ ويَهْدونهم السَّبيلَ فلا يَستجيبونَ ولا يَهتدونَ، ولا يُفَرِّقون بيْن ما يَضُرُّهم وبيْن ما يَنفَعُهم، والأنعامُ تُفَرِّقُ بيْن ما يَضُرُّها مِن النَّباتِ والطَّريقِ فتَجتنِبُه، وما يَنفَعُها فتُؤْثِرُه، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ للأنعامِ قُلوبًا تَعقِلُ بها، ولا ألْسِنةً تَنطِقُ بها، وأعطى اللهُ ذلك لهؤلاء، ثمَّ لمْ يَنتفِعوا بما جعل لهم مِن العقولِ والقلوبِ والألْسِنةِ والأسماعِ والأبصارِ؛ فهُم أضَلُّ من البهائم، فإنَّ مَن لا يَهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقِ -مع الدَّليلِ إليه- أضَلُّ وأسْوَأُ حالًا مِمَّن لا يَهتدي حيثُ لا دليلَ معه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

قَدْ وَصَلَ الْحَالُ بِبَعْضِ الْبَشَرِ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْبَهَائِمِ بَلْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ؛ والسَّبَبُ فِي هَذَا كُلِّهِ أَنَّ مِنَ النَّاسِ فِئَةٌ قَدْ فَعَلَتْ مُوجِبَاتِ سَخَطِ اللهِ، وابْتَعَدَتْ عَنْ طَرِيقِ رِضْوَانِهِ، وَخَالَفُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَلِيلِ والْكَثِيرِ، خَالَفُوهُ فِي أَخْلاقِهِ كُلِّهَا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿45﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمّا بَيَّنَ سُبحانَه جهْلَ المعرِضين عن دلائلِه، وفَسادَ طريقِهم في ذلك؛ ذَكَرَ بعْدَه أنواعًا مِن الدَّلائلِ الدالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، فقال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ مَمدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَرِيَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبِّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبِيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيِّرٌ، وكُلُّ مُتغَيِّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادِثٍ مُوجِدٌ. قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ).

قال ابن عثيمين: أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا يَجعَلَ النِّعَمَ أُمورًا عاديَّةً لا بُدَّ منها، بل يُقَدِّرُها بضِدِّها، فمَثَلًا: طُلوعُ الشَّمسِ على هذه الأرضِ وغُروبُها أمرٌ مُعتادٌ، ومِن أجْلِ كَونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الإنسانُ بأنَّه نِعْمةٌ، لكِنْ قَدِّرْ هذا الشَّيءَ بضِدِّه وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا، كذلك فإنَّ خُروجَ النَّفَسِ مِن جِسمِ الإنسانِ أمرٌ مُعتادٌ؛ ولهذا لا يُحِسُّ الإنسانُ بقَدْرِ هذه النِّعْمةِ، لكِنْ قَدِّرْ أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ لحَبَسَه، وحينَئِذٍ يتَبيَّنُ قَدْرُ النِّعْمةِ .

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَرَكتِها. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿46﴾

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: في مَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه نِعمةُ مَعرفةِ أوقاتِ النَّهارِ للصَّلواتِ وأعمالِ النَّاسِ، ونِعمةُ التناوُبِ في انتِفاعِ الجماعاتِ والأقطارِ بفوائِدِ شُعاعِ الشَّمسِ وفوائِدِ الفَيءِ، ووراءَ ذلك عِبرةٌ عِلميَّةٌ كُبرى توضِّحُها قواعِدُ النِّظامِ الشَّمسيِّ، وحَركةُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، وظهورُ الظُّلمةِ والضِّياءِ، ونشَأ عن تداوُلِ الظُّلمةِ والنُّورِ نِظامُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعن ذلك نظامُ الفُصولِ، وخطوطُ الطولِ والعَرضِ للكُرةِ الأرضيَّةِ، وبها عُرِفت مناطِقُ الحرارةِ والبرودةِ. ومِن وراءِ ذلك إشارةٌ إلى أصلِ المخلوقاتِ كيف طَرَأَ عليها الإيجادُ بعْدَ أنْ كانت عَدَمًا، وكيف يَمتدُّ وُجودُها في طَورِ نَمائِها، ثمَّ كيف تعودُ إلى العدَمِ تدريجًا في طَورِ انحطاطِها إلى أنْ تصيرَ إلى العدمِ؟ فذلك ممَّا يشيرُ إليه ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا، فيكونُ قد حصَلَ مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ في هذه الآيةِ -مع المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القدرةِ- تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النَّاسِ، وأحوالِ الشَّبابِ، وتقَدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلك صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيه ولا بُعْدَ -كما يزعمون-، فلمَّا صار قَبضُ الظِّلِّ مثلًا لمصيرِ النَّاسِ إلى اللهِ بالبَعثِ، وصَفَ القَبضَ بـ يَسِيرًا؛ تلميحًا إلى قوله تعالى: ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: 44] -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ إلى أنَّ الحياةَ في الدُّنيا كظِلٍّ يَمتدُّ ويَنقَبِضُ، وما هو إلَّا ظِلٌّ، فهذان المحمَلانِ في الآيةِ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿47﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: فاللَّيلُ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّه ظُلمةٌ تَعقُبُ نورَ الشَّمسِ.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا) أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (وهل هو لباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لأنَّه يكسو الأرضَ، ويكسو الإنسانَ في الواقعِ، فهو كاسٍ للأرضِ، وكاسٍ أيضًا للإنسانِ).

كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) [النبأ: 10].

وقال سُبحانَه: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) [الليل: 1].

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) أي: وجعَلَ اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم. موسوعة التفسير

وقال البقاعي: (وَالنَّوْمَ سُبَاتًا أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ).

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا [النبأ: 9].

(وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) أي: وجعَلَ اللهُ لكم النَّهارَ حَياةً بعْدَ نَومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تَنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [غافر: 61].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحْيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ)). رواه البخاري.

وقال: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ [فصلت: 37]، وقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا [يونس: 67]، قال ابن القيم: وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، فانظُرْ إلى هاتين الآيتينِ وما تضَمَّنَتاه مِن العِبرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللهِ وحِكمتِه؛ كيف جعل اللَّيلَ سَكنًا ولِباسًا يغشى العالَمَ فتَسكُنُ فيه الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطيرُ إلى أوكارِها، وتستجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ مِن كَدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ؟! حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتَها، وتطلَّعَت إلى معايشِها وتصَرُّفِها، جاء فالِقُ الإصباحِ سُبحانَه وتعالى بالنَّهارِ يَقدُمُ جَيشَه بشيرُ الصَّباحِ، فهزَم تلك الظُّلمةَ، ومَزَّقَها كُلَّ مُمَزَّقٍ، وكشَفَها عن العالَمِ، فإذا هم مُبصِرون، فانتشر الحيوانُ، وتصَرَّف في معاشِه ومصالحِه، وخرجت الطيورُ مِن أوكارِها، فيا له مِن مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ الله سُبحانَه على المعادِ الأكبرِ! وتكَرُّرُه ودوامُ مُشاهَدةِ النُّفوسِ له بحيثُ صار عادةً ومألَفًا منَعَها مِن الاعتبارِ به والاستدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخَلقِ بعْدَ

موتِهم، ولا ضَعْفَ في قدرةِ القادِرِ التَّامِّ القُدرةِ، ولا قُصورَ في حكمتِه ولا في عِلمِه يوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكِنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، وهذا أيضًا مِن آياتِه الباهرةِ: أن يُعميَ عن هذه الآياتِ الواضحةِ البَيِّنةِ مَن شاء مِن خَلقِه، فلا يهتديَ بها ولا يُبصِرَها، وبهذا وأمثالِه يُعرَفُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكَرُ ويُحمَدُ، ويُتضَرَّعُ إليه ويُسألُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿48﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا دلَّ على عظَمتِه بتصَرُّفِه في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وخَتَمَه بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبَعَه التصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلك؛ دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، فقال:

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) أي: واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في إرسالِ الرِّياحِ؛ لأنَّ هذه الرِّياحَ لو اجتمَعَ الخلْقُ كلُّهم على أنْ يأتوا بواحدةٍ منها، ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، مع أنَّ هذه الرِّياحَ في بعضِ الأحيانِ تقتَلِعُ الأشجارَ، وتُدمِّرُ المنازِلَ، هذه القوَّةُ العظيمةُ لو أتيتَ بمولِّداتِ الدُّنيا كلِّها لِتَخلُقَ مِثلَ هذا الهواءَ، ما حَصَلَ هذا...

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغَيرِه. موسوعة التفسير

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ ﴿49﴾

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) أي: لِنُحييَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: 39].

(وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ [النحل: 10].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿50﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الطيبي: لَمَّا قال: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، وعلَّلَه بحياةِ البَلدةِ الميْتةِ، وسَقْيِ بعضِ الأنعامِ وبَعضِ الأَناسيّ، عُرِف أنَّ ذلك كان بقَدْرِ الاحتِياجِ، ولا بدَّ مِن قادرٍ مُختارٍ عالِمٍ بجُزئيَّاتِ أحوالِ المخلوقينَ، حتَّى يُحوِّلَ إلى كلٍّ مِن ذلك ما يَحتاجُ إليه؛ فقال تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا) أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْنَ النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: يؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ الماءَ المنزَّلَ مِن السَّماءِ لا يختلفُ مِقدارُه، وإنما تختلفُ مقاديرُ توزيعِه على مواقعِ القَطرِ؛ فعن ابنِ عباس: (ما عامٌ أقَلَّ مطرًا مِن عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بيْن عِبادِه على ما شاء. وتلا هذه الآيةَ)، فحصَلَ مِن هذا أنَّ المقدارَ الذي تفضَّل اللهُ به مِن المطَرِ على هذه الأرضِ لا تختَلِفُ كَمِّيَّتُه، وإنَّما يختَلِفُ توزيعُه. وهذه حقيقةٌ قَرَّرها عُلَماءُ حوادثِ الجوِّ في القرن الحاضِرِ، فهو من معجزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ.

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلٍّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومِنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبينيَّةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ... لِيَذَّكَّرُوا أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، ولِيَذَّكَّرُوا يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا لِيَذَّكَّرُوا بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ. فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّر النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرِفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا).

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمينَ: (ومِن الكُفرِ بهذا المطَرِ... أن يجعَلَ ذلك سببًا للأشَرِ والبطَرِ، مِثلَما يحصُلُ مِن بعض الناسِ: إذا نزلَتِ الأمطارُ وكثُرت الأبيارُ صارت سببًا لأشَرِه وبطَرِه وفُسوقِه، فهذا من أسبابِه. ومِن أسبابِ الكُفرِ أيضًا: أنَّه إذا امتنَع المطَرُ صار امتناعُه سببًا لقُنوطِ الإنسان مِن رحمةِ الله سبحانَه وتعالى، والقُنوطُ مِن رحمةِ الله مِن كبائرِ الذنوبِ، وليس بالأمرِ الهيِّنِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أن يَقنَطَ مِن رحمةِ الله، ولا أن يأمَنَ مَكرَ الله، لا هذا ولا هذا).

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 99].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنِيِّ رضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ كذا وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمِنٌ بالكوكَبِ)) متفق عليه.